أسس الحكم الشرعي

في التصوير والتجسيم

عبد الحميد أحمد أبو سليمان*

القضية :

واجهت قضية إشكالية الفنون في الفكر الإسلامي المعاصر حين كنت أميناً عاماً للندوة العالمية للشباب الإسلامي، ونظمت الندوة لقاءها العالمي الثالث سنة 1976 م، وكانت قضية الإعلام هي الموضوع الثقافي لذلك اللقاء.

وبالطبع كان موضوع التصوير الذي يعد الأداة الأولى والأهم للإعلام يبرز في قضية ذلك اللقاء بوصفه أحد أهم إشكاليات الفكر الإسلامي المعاصر التي تواجه المشاركين، خاصة وأن اللقاء يعقد في مدينة الرياض؛ حيث إن الموقف الشرعي من الموضوع عند العلماء لم يستقر على جادة أصولية واضحة في الأمر؛ مما يسمح بتباين شديد في الرأي يصل عند بعض العلماء إلى مستوى الإشكال العقيدي.

وإشكالية الموقف عند العلماء في موضوع الفنون، ولاسيما التصوير على وجه الخصوص، ترجع إلى بعض نصوص السنة في النهي على العهد النبوي عن التصوير والنحت (التماثيل).

وموقف العلماء في هذا الشأن يتمثل بشكل عام في وجهات نظر ثلاثة، هي:

-1تحريم التصوير والنحت لما ورد من ظاهر الأحاديث النبوية بهذا الصدد.

-2إباحة التصوير والنحت جلباً للنفع ودرءاً للضرر.

-3إباحة التصوير الضوئي فقط على أنه حبس للضوء.

والموقف الأول يتجه إلى التحريم لالتزامه ظاهرَ نص السنة النبوية، والتزامه مفهوم سد الذرائع الدينية، ودفع أية شبهة وثنية مما أشارت إليه الأحاديث على عهد النبوة لما كان عليه حال العرب الوثنيين من عباد الأصنام.

والموقف الثاني، فإنه وإن حاول ملاحظة رعاية المصالح التي تتعلق بالحياة المعاصرة ودرء الأضرار التي تنجم عن تحريم التصوير والنحت (التجسيم) في ظروف الحياة المعاصرة وحاجاتها، إلا أن ذلك التبرير يظل عند كثير

من الناس والعلماء الملتزمين بحرفية النصوص يحيك في نفوسهم ويثير الحرج فيها، ويحول القضية من قضية لها اعتباراتها الحياتية والعملية إلى قضية أصولية نظرية من قضايا تعارض العقل والنقل، وضرورة الالتزام بتقديم النص على رؤى العقل، وما يتبع ذلك من إشكالات معاني الحاجة والضرورة، وغيرها من الاعتبارات العقيدية والفقهية والنظرية، التي تضيع معها القضية الأصلية إلى أمور وقضايا لا يدركها كثير من الناس، ولا يلقون لها بالاً، ويجعل العلماء في واد وجمهور الناس وواقع ممارساتهم في واد آخر.

أما الموقف الثالث وهو استثناء التصوير الضوئي من إشكالية التصوير والنحت، على أنه ليس من التصوير الذي عنته الأحاديث النبوية، ولكنه حبس للضوء، ولذلك فإن هذا الموقف وإن نحت حلاً لإشكال التصوير الضوئي، لكنه يبدو لكثيرين حلاً غير مقنع، وهو على أي حال جاء حلاً متأخراً لأكثر من قرن من الزمان منذ أن نشأ التصوير الضوئي وانتشر استعماله في كل مناحي الحياة، فقد جاء وقد أبدعت التقنية الحديثة لوناً آخر من ألوان التصوير والرسم وهو الرسم والتصوير الإلكتروني؛ والذي يعطي إمكانيات فنية وتعبيرية قد لا يسهل توفيرها بالتصوير الضوئي، و هي تقنية تنبئ عن استعمال مستقبلي واسع لها في كثير من مناحي الحياة العلمية والتعليمية والإعلامية والترويحية.

أساس الإشكال:

وقد أمعنت النظر في الأمر، ووجدت أن الإشكال في هذه القضية والتخبط الآنف الذكر في مواقف العلماء، إنما يعود إلى إشكالات أساسية تتعلق بالتعليم والنظر الشرعي في مؤسسات الأمة التعليمية في العصور المتأخرة بشكل عام، والتي إذا لم يتم مواجهتها بإصلاح مناهج التعليم، والنظر الشرعي، وإعادة رسم خارطتها فإن الفكر الإسلامي لن يتمكن من مواجهة إشكال التصوير وسواه من قضايا الفكر وتطورات الحياة المعاصرة، ولا من التعامل الفعال المستمر معها ومع ظروف الحياة المعاصرة وإمكاناتها وتحدياتها.

الإشكال الذي يمثله ويرمز إليه التصوير والنحت في الفكر الإسلامي المعاصر يعود في جذوره إلى طرق إعداد كوادر التعليم الديني بشكل خاص، وإعداد الإنسان المسلم الديني والمدني وثقافته بشكل عام، وإذا كان القرآن الكريم هو الرسالة الخاتمة إلى الإنسان على الأرض، فإنها بالضرورة تكون في جوهرها رسالة عقيدة ومبادئ وقيم ومفاهيم تجعلها صالحة لكل إنسان عبر الزمان والمكان، وذلك على عكس جوهر السنة النبوية وكثير من نصوصها؛ لأن جلَّها يتعلق بتطبيق المبادئ والقيم والمفاهيم القرآنية في واقع زماني ومكاني بعينة هو

عهد النبيّ ε في جزيرة العرب، وتجاه بني قومه من العرب في واقع إمكاناتهم وأساليب معيشتهم وما درجوا عليه من عاداتهم وتقاليدهم؛ وذلك لإقامة الحجة على الإنسان بإمكانية إقامة الحياة الخيِّرة المبنية على أسس رسالة الإسلام في الحق والعدل والتكافل والسلام، وحتى يقدم نموذجُ التطبيق النبوي الأسوةَ الحسنة، وحكمة الدروس والعبر في كيفية تطبيق المبادئ والقيم والمفاهيم السامية، وتحقيق مقاصدها في واقع حياة البشر، وهذا يعني أن التطبيقات وما يتعلق بها من توجيهات ونصوص محددة لا بد أن تكون في جملتها زمانية مكانية تتعلق بتطبيق مبادئ ومفاهيم لا زمانية ولا مكانية، وتكون قابلة للتطبيق الزماني المكاني بصور وتفاصيل مختلفة من زمان لآخر، ومن مكان لآخر، ومن حال لآخر، وبأشكال واجتهادات وترتيبات مختلفة يمليها حال الزمان والمكان.

فإذا جاءت ثقافة المثقفين والمدنيين من رجال العلم والمعرفة في ميادين الحياة المختلفة خالية من الثقافة الدينية الأساسية في المقاصد والمبادئ والقيم والمفاهيم التي تتعلق بميادين علومهم ودراساتهم من جهة؛ وإذا جاءت ثقافة رجال القانون والشريعة والعقيدة الإسلامية (العلماء) خالية من دراسات أحوال العصر وإمكاناته ومتطلباته وتحدياته، وما طرأ على حياة الأمة عبر عصور التاريخ، وأحوال الحضارة والعمران؛ مما يستوجب التجديد والاجتهاد الفكري في التطبيقات لتحقيق مقاصد الدين والشريعة؛ أي إذا كانت ثقافة كوادر كل فريق من الفريقين وإعدادهم أحادية تخلو إحداها من المقاصد والقيم والغايات التي يجب أن تلتزمها في فكرها وتدابيرها، وتخلو الأخرى من فهم العصر وإمكاناته ومتطلباته وتحدياته وتطوراته وسبل التعامل معه، فلا غرابة إذا أصاب العجز الفكري كلا الفريقين، وأصبح كل فريق في الحقيقة –وبغض النظر عن الدعاوى الفارغة الجوفاء– على غير منهج علمي حضاري فعَّال، يخبطون جميعاً من الناحية الفكرية والعلمية خبط عشواء؛ كل فريق منهم على خلاف وصراع مع الفريق الآخر؛ وفكر كلا الفريقين مصدر إحباط وحيرة وتخلف للأمة، ولا غرابة أيضاً أن يتحول مثقفو الأمة على مختلف ألوانهم واختصاصاتهم إلى سدنة للجمود والمحاكاة، وسدنة للعجز والتخلف في الأمة .

وأقرب تصوير لعلاقة هذه الكوادر الدينية والمدنية في واقع عالم الأمة الإسلامية اليوم –على ما هي عليه من جمود وعجز– هو حال الممثلين وحال جمهور المسرح؛ فالجمهور يشاهد التمثيلية والممثلين، وقد يجد فيما يقدمونه مادةً وقصصاً وعروضاً مسلية وممتعة، ولكن ما يقدمه الممثلون للجمهور في خاتمة المطاف ليس إلا

قصصاً وقضايا لا تتعلق بخاصة حال المشاهد، والمشاهد ليس طرفاً فيما يقدمه الممثلون على المسرح، وسوف ينصرف المشاهد عما دار على خشبة المسرح بمجرد انصرافه من صالة العرض، حاله في ذلك حال تحصيل كثير من الطلاب في البلاد المتخلفة حين ينصرفون من مقاعد الدراسة، وحاله أيضاً يشبه حقيقةً حال تأثر كثير من الناس في واقع حياتهم بخطب كثير من الوعاظ، ومثله فائدة الأمة من جعجعة جلِّ الساسة والقادة والإداريين بخطط الإصلاح والتطوير التي على مرِّ العقود والقرون لم تفد الأمة، ولم تحرك موات الأمة ولا طاقة الفعل الكامنة فيها.

أساس الحل:

وأساس حل هذا الإشكال الفكري المنهجي يكمن في وجوب استعادة وحدة فكر الأمة وحدتِه المعرفية الإسلامية، ووحدة مصادره في النص والعقل والكون والوقائع؛ بحيث تصبح كوادر العمل والإنتاج والعطاء الفكري الحياتي في الأمة في كل جانب، وفي كل مجال من مجالات الحياة تصدر عن بصيرة دينية عقيدية قيمية سليمة، وعلى بصيرة علمية إبداعية تقنية فاعلة، كما تصبح كوادر الفكر الديني العقيدي والفقهي القانوني على علم ودراية وخبرة بأحوال العصر وإمكاناته وحاجاته وتحدياته؛ لتصبح كوادره قادرة على إعطاء دليل القدرة والعمل العقيدي والقيمي الأخلاقي، وإحداث النقلات اللازمة لتطبيقات العقائد والمبادئ والقيم والمفاهيم عبر الزمان والمكان، بكل ما يمكن أن توفره عقيدة الرسالة الربانية ومبادئها وقيمها ومفاهيمها وأخلاقياتها للإنسان من صلاح وقدرة عمرانية حضارية؛ مما يؤهل الأمة للقيادة والريادة وحمل الأمانة الاستخلافية.

وبهذه المعرفة الموحدة والمنهج الفعال تؤهل كوادر الأمة المثقفة بشقيها الديني المبصر (العقيدي والفقهي) والمدني المنتج (العلمي التقني) لأن تصبح قادرة على التعامل مع الواقع وإمكاناته وتحدياته، وقادرة على إدراك الزمان والمكان في النصوص، ولاسيما نصوص السنة النبوية المتعلقة بتطبيق مبادئ الرسالة ومفاهيمها على عهد الرسالة في الجزيرة العربية، وتنزيلها بحكمة وإحكام على واقع العصر في أبعاد الزمان والمكان؛ لتحقيق مقاصد الشريعة، وتمكين قيمها ومبادئها ومفاهيمها في واقع حياة الأمة وحضارة الإنسان.

الأصل الشرعي الحياتي الإباحة:

وإشكالية الخلاف بشأن التصوير والنحت لو أدركنا فعلاً بعد الزمان والمكان فيهما لما كان هناك – فيما أرى– إشكال أصلاً؛ لأن القضية التي تشير إليها نصوص السنة النبوية تختلف في موضوعها واستعمالاتها وآثارها عن القضية التي نواجهها في عصرنا الحاضر.

والذي سبب في قضية التصوير هذا الخلط وهذا الإشكال هو أن قضية الزمان والمكان ليست في بؤرة فكر المثقفين المسلمين على جانبي المعرفة الدينية الفقهية القانونية والعلمية الحياتية التقنية.

فالمشترك اللفظي في هذه القضية وهو كلمة "التصوير" أو كلمة "التماثيل" وهي كلمات تختلف في دلالتها على عصر الرسالة عنها في عصرنا الحاضر، وإن عدم إدراك هذا الفرق هو السبب الأساس في التخبط والتخليط الفكري بشأنها لأكثر من قرن من الزمان عند التصدي لهذه القضية، وهذا السبب هو نفس السبب في كثير من إشكالات قضايا الفكر الإسلامي المعاصر التي تماثلها؛ وذلك لغياب وحدة المعرفة الإسلامية، ووحدة مصادرها، وقصور مناهج الفكر فيها، ومن ذلك غياب بعد الزمان والمكان عملياً في واقع الفكر الإسلامي المعاصر، والذي تسبب وما يزال يتسبب في كثير من الأحيان في عجز الفكر المسلم، وفي عدم قدرة الأمة على الاستفادة في كثير من الأحيان من هدي الرسالة وإصلاح شئون الأمة على مستوى العصر ومعارفه وإمكاناته وتحدياته.

لتوضيح المقصود وتبسيطه فإنني أضرب مثلا بلفظ "السيارة". فقد ورد لفظ "السيارة" في القرآن الكريم بمعنى قوافل التجارة والسفر والتنقل بين البلاد، ونحن اليوم نطلق في كثير من البلاد العربية لفظ السيارة على العربات الآلية التي تمثل أهم وسائل النقل والحركة في كافة مناشط الحياة داخل المدن وخارجها (Motor car)

ولندرك مغالطات التشابه والاشتراك اللفظي بتأثير الزمان والمكان فإن من البدهيات أنه لا يصح أن نفهم ولا أن نفسر لفظ "السيارة" الذي ورد في القرآن الكريم على أنه عربات النقل الآلية الحديثة (Motor car) لمجرد الاشتراك في لفظ السيارة، فشتان بين هذه وتلك.

وهذا اللون من الخلط هو الذي نقع فيه حين نتحدث عن "التصوير (المسطح أو المجسم بالرسم أو الضوء أوبالتقنيات الإلكترونية أو سواها) في عصرنا" في قراءتنا لنصوص الأحاديث النبوية؛ لأننا حين نتحدث عن "التصوير المسطح" أو "التصوير المجسم" في عصرنا فنحن لا نتحدث عن "التصوير" أو "النحت" الذي

وردت الإشارة إليه في نصوص السنة النبوية على العهد النبوي.

فالصورة المرسومة أو المجسمة (الأصنام) على العهد النبوي وقبله وبعده لأمد طويل لم يكن لها من هدف ولا غاية إلا الناحية الدينية فقط.

ولذلك فإن الرسول ﷺ حين وضعت الصورة في مواضع لا تسمح بالغرض الديني لم يأبه رسول الله ﷺ بها ولا بأمرها، وكذلك لم يأبه رسول الله ﷺ بالصورة المجسمة (عروسة أطفال) حين صنعت لعبة لتسلية الأطفال.

ولا يختلف مسلمان في رفض الصورة لأغراض دينية بكل أشكالها مجسمة وغير مجسمة، وتحريمها لديهم، ولا يخالط خيال أحد منهم شيء من هذا؛ لأن عقائدهم لا تستدعيها، ولا تخدم هدفاً نافعاً عندهم في دينهم.

والصورة التي يدور حولها التخليط والخلاف في هذا العصر ليست الصورة لأغراض دينية، ولكن هي الصورة في أشكالها المختلفة لأغراض علمية وتعليمية وإعلامية وترويحية، وهي صور وأغراض -إذا كان لدينا أي قدر من الوعي على الزمان والمكان- نعلم أنها لا تتعلق بالأغراض الدينية، ولا بالأحاديث النبوية، ولا بالأغراض التي توختها الأحاديث النبوية على عهد الرسالة، وبذلك فإنه لا معنى لاستدعاء تلك النصوص وتلك التوجهات بشكل حرفي لغوي في هذا العصر، ولمناسبة أغراض التصوير في هذا العصر.

القضية التي يجب أن نستدعيها هو الجوهر والغاية والمقصد، وهل استخدامات الصورة المسطحة أو المجسمة في الأغراض العلمية والتعليمية والإعلامية والترويحية مفيد أم غير مفيد، وهل هي ضرورية ومفيدة، في إطار العصر وإمكاناته وحاجاته وتحدياته، أم لا.

وأي عاقل على وعي بأحوال أمته وأحوال عصره وحاجاته وتحدياته يعلم أن هذه الاستعمالات نافعة وضرورية، وأن أمته قصرت وما تزال في الإفادة من خوض غمار العلوم والتقنيات وتطويرها والاستفادة الصحيحة منها، ومن ذلك استعمالات التصوير وسواها من تقنيات العصر وإمكاناته العلمية، مما أضر بالأمة أشد الضرر، وجعلها بجمودها وسلبيتها وروحها الاستهلاكية البحتة في مؤخرة الأمم؛ تعاني من ضعفها العلمي والتقني في مواجهة الأمم الأخرى الطامعة القادرة.

الصور التي نتحدث عنها في عصرنا لا علاقة لها بالصور التي تحدثت عنها السنة النبوية، والمطلوب هو مزيد من القدرة على استخدامها الاستخدامَ المفيد، وليس الخلط والتخبط في شأن أصل التعامل معها بسبب

المنهج الفكري اللفظي التقليدي أحادي المعرفة والنظر.

كل ما علينا أن نسهم به، خاصة من الناحية التربوية بالدرجة الأولى، هو دفع الأضرار من أي استخدامات سلبية وضارة لهذه الوسائل ولسواها من الوسائل والأدوات والتقنيات التي تستلزمها الحياة المعاصرة وحاجات الإنسان المعاصر؛ لأن التصوير مثله مثل كل شيء آخر سلاحٌ ذو حدين، علينا أن نعي كيف نستخدمه دون أن نؤذي أنفسنا، مثله في ذلك مثل السكين في اليد لذبح خروف حلالاً، أو لقتل إنسان ظلماً وعدواناً.

هذا الرأي أبديته في لقاء الندوة المشار إليها في صدر هذه المقالة، وضمنته وصايا اللقاء، ولم يجد الرأي في حوارات اللقاء أي اعتراض أو رفض، وأظنني اليوم كما ظننت بالأمس، ومن خلال تجارب عديدة في مجالات كثيرة، أن هذا الرأي صواب في القصد والمنهج.

حلاله حلال:

وأهمية هذا الرأي والمنهج الذي سبق بحثه لا يقف عند أمر الصورة، ولكنه يمتد إلى كثير من المجالات والأدوات، وبالتالي إلى كافة الفنون أيضاً، وجوهره أن ما كان نافعاً ومفيداً للإنسان فلن تحرمه الشريعة ولن تمنعه، إلا حين يصبح خبيثاً ضاراً، لذلك فإن علينا أن نعمل المنهج العلمي الشمولي الصحيح لمعرفة وجه الحقيقة فيما نتناوله من قضايا العصر، لا أن ننظر بأحادية معرفية ومنهجية قاصرة تقصر بنا عن إدراك الجوهر وما يلحق به من تداعيات الزمان والمكان؛ لننتهي بمنهج قاصر إلى تشابهات لفظية مضللة، وإلى إحباط الأمة والإضرار بها وتعويق مسيرتها.

وما زلت أذكر من حديث الإمام الداعية الشيخ محمد الغزالي يرحمه الله وهو يعلق على أمر مختلف وجوه الفنون، ومنها الغناء الذي يشتد الخلاف عادة حوله أكثر من غيره، ولعله ذكر ذلك أيضاً في أحد كتبه فقال " الفنون حلالها حلال وحرامها حرام " يعني ضرورة النظر إلى مآلها وأثرها، هل هو نافع أم ضار؟ وعدم الوقوف عند مظاهر الألفاظ بعيداً عن المقصد في الزمان والمكان، فذلك ما يقرر حِلَّ أي مفردةٍ منها أو تحريمها.

فالصور والرسوم وبقية الفنون مثل سواها من مناشط الحياة وجمالاتها، ما كان منها لأمر نافع يعين الأمة بوجه

من الوجوه، أو يبعث فيها المعاني الطيبة والمشاعر الجميلة في النفوس، ويروّح عنها الترويح البريء فهي حلال، وما كان منها لأمر خبيث أو ضار، ويدعو إلى ارتكاب المحرمات، ويدعو إلى العقائد الضالة والشهوات المنكرة؛ فهو حرام؛ ولذلك فإن تخيلات صور الغيبيات والأنبياء والرسل إلى جانب محاذيرها الدينية التي قد تؤدي إليها أدبيات بعض الأديان؛ حيث تدنس صور كثير من الأنبياء والرسل، وكذلك حال بعض أدبيات المناهضين للأديان، الهادفة إلى تدنيس صور بعض هؤلاء الأنبياء والرسل في أفلام هابطة، إنما تمثل في حقيقتها حرباً على الأديان، كل ذلك مما لا يزال يؤكد في حال هذه الأمم والأديان أضرار التصوير والنحت لأغراض دينية مما يغلّظ حرمة مثل هذا اللون من الصور والتصوير الديني عامة، وللأنبياء والرسل خاصة، ويدعونا إلى الزهد فيه والابتعاد عنه، فلا يرجى منه نفع، ولا يخشى منه إلا الضرر.

وعلى شاكلة التصوير يجب أن ينظر إلى كل الفنون، ما كان منه نافعاً وباعثاً على معاني السمو والجمال في النفوس، ولا يوصف بأنه هابط أو ماجن أو منحط، ولا يدعو في رأي الأمة وقادة العلم والفكر فيها إلى انحطاط السلوك والأخلاق، ولا يحض على الرذائل، ولا يؤدي إلى ضرر بالأمة ومصالحها؛ فهو حلال ومطلوب، على أساس التعامل مع جوهر الأمور في سياقاتها الصحيحة، وهو جوهر المقصد الصحيح للدين والشريعة.

وهذا كله يعود بنا إلى ما بدأنا به وهو ضرورة العمل على إصلاح واقع منهج المعرفة الإسلامية، وتحقيق وحدة مصادرها، وإصلاح التعليم الديني والمدني على أساسها، وبذلك يحسن إعداد كوادر الأمة في كل مناحي الحياة؛ لتؤدي دورها في خطاب الأمة، وتفعيل طاقاتها على هدي الإسلام في كل زمان ومكان، وعلينا أن نتيقن أنه بدون صفاء العقائد وسمو القيم والمبادئ وسلامة الفكر وصلاح المنهج وشموليته يكون الإصلاح وتفعيل طاقات الإنسان المسلم ضرباً من الخيال ولهاثاً نحو السراب.

نسأل الله التوفيق والسداد والرشاد

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين